المنثور لابن الجوزي

من أدبيات ابن الجوزي في المواعظ. ويضم موعظة واحدة، تقع مطبوعتها في ثلاث وخمسين صفحة، من القطع الصغير، ويمكن إلقاؤها في مجلس واحد. ولعل ابن الجوزي ألقاها في الطريق إلى مكة، أو في موسم الحج. وأكثر فيها من ذكر يوسف وقميصه، ومحبة زليخا ويعقوب، وضمّنها طائفةً من شعر العشاق وحكايا الصوفية، إلا أنه لم يعن بنسبة الشعر إلى قائليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحيا أموات النبات بنفحة نفحة إسرائيل الأقدار بالاقتدار، في صُوَر صورةِ شريف لطيف رحمته المودعَة في ضمن أرسال الرياح . الذي حَلّى أجياد الجماد من قدود مهفهفات الأغصان بلآلىء عقود العنقود كاللؤلؤ المنضود، من سوسن ونرجس وشقائق وأقاح وتفاح، ومنطق غلمان أفنان الأشجار بمعصفرات مكلَّلات مناطق الزهر الفيّاح، فالأرض تبتسم عَجَباً، والسماءُ تبكي طَرَبا، والنَوْر يحكي ذَهَبا، والطير يُغنّي شجناً وبرتاح، وعروس عرائس – الغُروس تتمايلُ تواجداً عند مرّ هبوب لطيف عطر نسيم الرياح، فكُتما أدارَ نديمُ نسيم بنسيم وابل الأمطار، في مجلس الدوحة على صوفيّة الأشجار كأسَ الطربِ والأفراح، وصوتت شبابةُ الريح ،على إيقاع طار الرعد غنّى بلبلُ البلبال وباح، ولمعت شموس النُوّار، وصَفَّقَت أكفُ الأوراق فتمايلت الأشجار، ورموا على مغاني الأطيار مرقعات النواوير من الارتياح، والطيور تسجع والهزار يصفر والهدهد يهدّد بإفصاح، والقمر يُغَرِّد، ورهبان الملائكة يتلون في جوامع صوامع أذكارهم إنجيل تبجيل الملك الفتّاح، البصير الذي يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء بغير مقلة تعتريه بالانطباق والانفتاح، السميع الذي يسمَعُ وقوع قوائم الذرّ على البرّ، ويعلم ما يختلج في طباق مكنونات خزائن الأشباح، ينزل كلّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا – تعالى ربّنا عن الانتقال والقيام والارتحال والمسير والعدو والرواح – فيقول : هل من سائلِ فأعطيه? هل من تائبِ فأتوب عليه? هل من داع فاستجيب له، كما ورد عن النبي) في الصحاح، فَسبحان

الذي أطلع من قعر بحر الغيب نفيس جواهر الأرواح، وأودعها بسرِّ حكمته في خزائن الأشباح، أدارَ الفَلَكَ لِيُعْلَمَ بدورانهِ وجودُ المساء والصباح، جعل الليل والنهار طرازين على كُميّ مرقعة الدهر لاصطياد الأرواحُ من اقفاص الأشباح، نَثَرَ دنانير الكواكب على زُرقة شقّة وجه السماء والليل مطويُّ الوشاح، فكأنهُنَّ جَمَرات بقين في مواقد خَلَعَتْ عنها ثيابَ الرماد أيدي الرياح، أو عيونُ الروم رُكِّبت في محاجر السودان رَكَّبها مقترحٌ أحسنَ الاقتراح، مجيبُ دعوة المضطرِّ إذا دعاهُ وهو معتكفٌ على صَنَم لذّاته وأفعالِه القباح، يسمعُ حنينَ أنينِ الأطفال في ديجور الليل وجَرْيُ الماءِ في العود وخيلُ الليل تركض للصباح، استوى على العرش وما جلس، ونَزَل وما انتقل، هذا هو الحق ومن خالفه فهو الخطأ الصُراح، من شرب من راحِ حُبِّه ارتاح، وأعلن بأسراره –وباح، من خالَفَ هوى نفسه استراح، وإلاّ فهو كبيتٍ ما فيه مصباح، أفيقوا من خُمار الهوى فقد نادى المنادي : حيَّ على الفلاح، واتلوا على أسماع القلوب آية فَسَّرها ذو الصلاح،)الله نُورُ السَماواتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمشكاةٍ فيها مِصْباحٌ (قُمْ في وقت السحر واسمع حنين العاشقين وأنين المشتاقين ياذا الأفعال القباح، ينادون مولاهم بشفاهٍ ذابلة، ودموعٍ سائلة، وزفرات قاتلة، وألسنة فِصاح، فإن انقطع قلبك في بادية ذنبك وأنت بمعزل عن الصلاح، فنادِ على نفسك نداء من أعلن بقصتهِ وباح، وتفكّر في أفعاله القِباح، فصاح فأنشد صُراح :

لا خير في العيش بغير افتضاح — وهل على من مات وَجداً جُناح

قد جئتكم مستأمناً فـارحـمـوا — لا تقتلوني قد رميتُ السـلاح

لا تقتلوني أنـا فـي أسـركُـمْ — والحبُ قد أثخن قلبي جـراح

نَحْمَدُهُ و نشكرُه على ما منَحَ من عطاياه أباح، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك، لِه شهادةً أرجو بها الفوزَ والنجاح، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المخصوص

بالعلم وأزواجه صلاةً تقوم فتدوم ما هَبَّت الرياح وما تعاقب الجديدانْ واختلف المساء والصباحْ.

امّا بعد: وفقنا الله وإيّاكم فإنّا نستفتح المجالس بذكر الله العظيم، لنطرد به العويَ الرجيم، ونخرج به من زمرة الغافلين، ونهتدي به إلى الصراط المستقيم، والمنهج القويم، فنقول إذ ذاك بسم الله الرحمن الرحيم، اسم عزيز، بسم الله كلمة السلامة، بسم الله كلمة الكرامة، بسم الله إذا مرّ على القلوب المريضة شَفاها، وإذا نَظَر إليها بعين العناية بلّغها مناها، اسم بذكره يستأنس المستوحشون، بسم الله الرحمن الرحيم أسكر العقول وأحيا القلوب، كاسات هذا الاسم دائرة، فأين القلوب الحاضرة، عَجَباً لبقاء هذه النفوس عند دَوَران هذه الكؤوس، عَجَباً كيف تبقى الأرواح في الأشباح عند ذكر الملك الفتّاح، لو أدير هذا الكأسُ على جبل أبي قبيس لَسَكَرَ سُكْرَ قيس، لولا استتار الحقيقة بستر لطيف عن العبأد، لم تثبت عند ذكره الأرواح في الأجساد، لمن لا تليق به الأشياء والأنداد، هذه كؤوس بسم الله تُدار مَنْ يشرب?، هذه حُداةُ الذكر تُغَنَي فأيْنَ من يطرب ? هذه حمائم الاشتياق تنوح فأين من قلبه بالفراق مجروح ? من لم يتطيّب بعرف هذا الوادي فلا طيب له في هذا الناديْ.

خليليَّ إن الجزع من الطيب كافوراَ

أضحى تُـرابُـهُ وعيدانهُ رَنْـدا
وأصبح ماءُ الجزع حجارتُه مِسْكـاَ و
عَذباَ وأصبحت أوراقُـهُ وَرْدا
وما ذاك إلاّ أَنْ مَشَت كل بنَيْنَةُ في سربِ
بجـنـابـه فَجَرَّتْ به بُرْدا
فأهدت لنا من عطفها نسيماً كريح المسك
يوم سَلَّمَـتْ زدنا به وَجْـدا

قال سهل بن عبدالله : ما من يوم إلاّ والجليل سبحانه ينادي : ما أنصفتني عبدي أذكرك وتنساني، وأدعوك إليَّ فتذهب عنّي إلى غيري، وأذْهِبُ عنك البلايا، وأنتَ مُعتكف على الخطايا، يا ابن آدم ما اعتذارك غلي اً إذا جئتني?.

ما زلتَ دهراَ للقلى ولطالما قد كنتَ عنا
مُنَـعَـرَّضـاَ مـعْـرِضـا
جانبتنا دهراَ فـلـمـا عوضاً سوانا صرت
لـم تـجـد تبكي ما مضى
لو كنتَ لازمتَ الوقوفَ لَلَبِستَ من إحساننا
ببـابـنـا خِلَعَ الـرضـا
لكن هجرتَ حقوقنا فلذاك ضاق عليك
وتـركـتَـهـا متَّسع الفـضـا
مَنْ ذا يُطيقُ صدودنـا أو صبر على سيف
مـنْ لَـهُ الصدود المُنْتَضى

يا هذا جَدَّ العارفون وهزلتَ وصعدوا في طلب المعالي ونزلتَ ? !

حَدوا عَزَماتٍ ضاقت فصار سُراهم في
الأرضُ دونَها ظهور العـزائم

لاحَ لهم عَلَمُ الوصال فنفضوا مزاود الركائب فصاح المحبّ : هبّت لنا من رياح الغدير رائحة :

تَمُرُّ الصبا صَفْحاً بساكن ذي الغَضا وَيصْدَعُ قَلْبِي أَن يَهبَّ هُبُوبها

قريبةُ عَهْدٍ بالحبيبِ، و إنَّما هَوَى كُل نَفْسٍ حَنثُ حَلَّ حَبِيبُها

وما هجرتكِ النفسُ أنَكِ عندها قليل، ولكن قَلَ منكِ نصيبُها

ولكنهم يا أجمل الناس أولعوا بقولٍ اذا ما جئتُ : هذا حبيبُها

يا هذا تتوجه إلى الحبيب و معشوقتك الدنيا? !

طَهِّر خِلالَكَ من خِلّ تُعابُ به من الدنيا بالبِرّ والبَرّ والبُرَّ

قد وافقوا الوحشَ في سكنى مرابعها وخالفوها بتفويض وتطبيبِ

نافرهم النومُ وخالفهم السهرُ، فهربوا من كرب الوجد الى نسيم الصبا.

يا لنَسيمِ سَحَرٍ بحاجرٍ روَّت به ريحُ الصَبا عَهْدَ الصَبا

السَحَرُ ربيعُ الأحباب وريحُ الربيع عبير، إذا جالت رياح الأسحار في صحراءِ التعبّد حملت ارائج أزاهر القلوب.

"تؤدي صباها ما تقول خزاماها"

إذا هَبَّ من وادي يذكّرني عهد الصبا

العقيق نـسـيمُ فـأهـيمُ
وإنْ لَمَعَتْ نار على دعاني هوىَ في
ابرق الحمى القلب منكِ قديمُ
وأصبو لخفّاق وسوقي لسُكّان
النسـيم إذا سـرى الغوير عـظـيمُ
وإني إذا ما مَضَني رحلتُ وقلبي في
الشوقُ والأسى الديار مـقـيمُ

أوحى الله – عز وجلَ – إلى داود – عليه السلام –:
قُلْ لشُبّان بني إسرائيل لِمَ تُشغلون نفوسكم بغيري وأنا مشتاقٌ إليكم، ما هذا الجفا لو يعلم المدبرون –عنّي كيف انتظاري لهم وشوقي إليهم لماتوا شوقاً إليّ وانقطعت، أوصالهم من مَحَبَتي، هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المدبرين عليّ?، يا داود !كَذِبَ من ادَعى مَحَبَّتي فإذا جَنَهُ الليلُ نام عنّي، كَذِبَ من ادّعى محبتي ثم خَطَرَ بباله غيري، يا آذان القلوب اسمعي أنا جليس من ذكرني :

وما كنتمُ تعرفون الجفا فَممَّنْ ترى قد تَعَلَّمْتُمُ

فيا أرباب القلوب أما فيكم من عَدِمَ لَذَّة قرب محبوبه، أما فيكم من أرضعوه من لبان وصالهم ثم فطموه، يا مفطومهم إبك وترامَ عليهم، يا سماء، أعين المحجوبين اسكبي، يا قمرية قلوب المهجورين ترنّمي واطربي، يا ألسنة المحبِّين عمّا يجن الجنان اعربي، يا أكباد المحزونين ذُوبي والهبي :

لقاؤك أنسق للمُحِبِّ وذكرك لي راحٌ

وسـلـوانُ وريحُكَ ريحانُ
وأنت حياتي إنْ و أوّلُ مَفْقُودَيْنِ روح
فقدتك لـمـحةً وجثمـانُ
ومن عَجَبي أنّي وأنّ فؤادي مـن
للَحْظِكَ ناظـرٌ ورائك مـلآنُ
جرى لكَ ذكز وعند هبوب الريح
فاهتززتُ لطيبـهِ ينعطفُ البانُ
ومن عجبي دمعي وفي كَبدي جَمْرٌ يذيبُ
لبُعْدِكَ هَتّـانُ ونـيرانُ

يا مَنْ قد أضاعَ يوسفُ قَلْبَهُ جُزْ بخيام القوم لعلَّكَ تجدُ ريحَهُ، قِفْ بالسَحَر على أقدام الذُلَ لم وقل بلسان التذلُل)يا أيها العزيز مَسَّنا وأهلنا الضُرُّ(، لمّا أجدبت أرضُ قلب يعقوب لفقد قطر سحاب جمال يوسف، خرج أهل كنعان يستسقون في مصلّى صحراءِ مصر مُرتدين بأردية مَسَّنا وأهلنا الضُرُّ وَجئْنا ببضاعةٍ مُزْجاة فَأَوْفِ لنا الكيلَ وتَصَدَّقْ علينا(.

نشأت سحابُ الغيث)هل علمتم ما فعلتم بيوسف(.

غردَ قمريُّ الاعتراف)تالله لقد آثركَ اللهُ علينا وان كُنا لخاطئين(فتبسم ثغر سحاب العفو لا تَثْرِيبَ عليكم(.

إذا ذَهَـب الـعـتـابُ ويبقى الـودُ مـا بـقـي
فـلـيس وُدٌ الـعـتـابُ
لولا مرارة البُعد ما نال
حلاوة التلاقيْ
فلولا البُعد ما حُمِدَ ولولا البـينُ مـا طـابَ
التداني الـتـلاقـي

لمّا توجّه الصدِّيقُ بقميصِه إلى يعقوب عليهما السلام –القوةُ وهو يدور في البيت ويقول :)إنّي لأَجِدُ ريحَ يُوسفَ لولا أَنْ تُفَنّدونِ(وقد اشتمَّ رائحته من مائة و أربعين فرسخاً.

نسيمٌ بدا من عطر إليكَ فهاج القلبَ
قربك هاجني والجسمُ حاضرُ
فإنْ غَنّت الأطيارُ وإن هَبَّت الأرياح
اطرقتُ نَحْوها فالطرفُ ناظرُ

قيل : لمّا جاء البشيرُ بالقميص ودفعه إلى يعقوب –عليه السلام شَمَ رائحته ووضعه على وجهه فارتدَ بصيراً.

إذا ذُكِرَتْ ارضُ "العقيق" و تَهيج بقلب المدنف
نُعمانُ" الصَبِّ نيرانُ
وإن لاح برق "بالغوير" إلى البان واحزني وأَنّى
يهيجني ليَ البانُ
احنّ إلى سكّان لَعْلَعَ لما وهم في فؤادي
والِّلوى والحشاشة سُكّانُ
ولي إن سرى الركبُ تدلُّ على أَنْ في فؤادِيَ
اليماني أنَّهُ اشجانُ
وإنْ مَرَّ بي ركبُ "العذيب" كأنِّيَ من خمر الصبابة
حسبتني نشوانُ
أَحِنُّ إلى تلك الديار لأنَّ بها أحباب قلبيَ
تَشَؤُقاَ قُطانُ
ومن عجبي اهوى ديار وسُكانُها في ربع قلبيَ
أَحِبَّتي سُكّانُ

إذا هَبّ نسيمُ نجد تحرّك المشتاق بالوجدْ

إذا الريحُ من أرض الحبيب تنَسَّمَتْ على كَبِدٍ قد كاد يحـرقُـهـا الـجـوى

وجدتُ لمجراها علـى كـبـدي بَـرْدا تذوبُ وبعضُ القوم يحسبـنـي جَـلْـدا

إخواني ! تأهبوا ليومٍ تترادف فيه العَبَرات، وتعظم . الحَسَرات، فَيعضُ الظالم على يديه ويقول : يا حسرتا يوم يقول لك أين من أرضيتَ عنك بغضبي عليك، ابن آدم أين من كنتَ تَزَيَّنْتَ له وبالقبيح بارزتني، ما هذا التذلل بين يديّ وقد كنت جبّاراً عنيداً، طالما ذُكرْتَ بموقفكَ هذا فتناسيتَ، وطالما بُصِّرْتَ بأمركَ هذا فتعاميتَ، ولم تزدد إلاّ فراراً، يا حسرةَ العاصين، يا ذُلّ مقام المتجبرين، واخيبة المضطرين، واخسارة المُسرِفينْ.

أهلَ الغرام تجمَعُوا اليوم يومُ عتابنـا

نَعَقَ الغرابُ بِبَيْننا فَغُرابُنا أغرى بنا

إنّ الذين نُحبُّـهـم قد وُكِّلوا بعذابنـا

قوموا بنا بحياتكـم نمشيَ إلى أحبابنا

قومٌ إذا ظفروا بنا جادوا بعتق رقابنا

إخواني ! لو رأيتموهم في الدجى بين الخوف والرجاء، تائبهم يقول: اعفُ عنّي وأقلني عثرتي، ومتعبِّدهم يتململ:

تُريدينَ إدراكَ ولا بُدَّ دونَ الشَهْدِ من
المعالي رَخِيصةً إبرِ النَّحْلِ

وباكيهم يستغيث قّصُرَتْ دموعي عن مَدى حُزني" ومحبُّهم يترنم : وّهَبْتُ السُلوَّ لمن لامني" ومشتاقُهم يزمزم : "وعلِّلاني بحديث حاجر" ومتململهم يهتف : "شجوي كشجوي يا حمامُ ساعدي" ومنبسطهم يقول : "أنتِ النعيم لقلبي والشقاءُ له" والمُدِلّ يتكلم : لاّ تَبْرِ عوداً أنتَ ريشتُه" إلى متى تشرُدُ عن مؤلِّفك، يسترك وتعصي، ويقَرِّبُكَ وأنت لنفسك تُقصي.

"لحا اللهُ من لا ينفع الوُدُ عند" يا عبدَ شهوته، يا قتيل غفلته، يا أسير بَطالته)أ أربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار(لقد حدثت من لا يعرف، وعذلتُ من لا يسمع، وزجرتُ من لا يقبل، ومتى اتهم الترجمان فالأولى له السكوتْ اجلس ساعةً في بيت الفكر وصِحْ على نفسك بصوت اللوم أما أتعبتَ الرواحل في أسفار الجهالة، أمّا أخذ الفراقُ حظّه من يعقوب، أ أبقى السقام موضعاَ في جسم أيّوب، فإذا سجنّ الليل فعلق على قطار المتهجدين، وزاحم زمرة المستغفرين، فإن هتف لسانُ العتاب اطلتَ الغيبة عَنّا فَقل بلسان التذلل :

ما كنتُ أعرفُ ما حتى هجرتَ وبعضُ
مقدار وصلكُـمْ الهجر تأديبُ

ثم أرسل منشدُ البكاءِ فَسُمع القيولُ يستطيب تلك النغمة وليكن في بسيط الغناء :

مضى زمنٌ والناسُ فهل لي إلِى ليلى
يَسْتَشْفِعُونَ بي الغداةَ شفـيعُ.

واجعل في الثقيل :

فَلَيْتَكَ تَخلُو والحـياةُ ولَيْتَكَ تَرّضَى والأَنامُ
مـريرةٌ غِضابُ
وليتَ الَذي بيني وبَيْني وبينَ العالمين
وبَيْنَكَ عامرٌ خَـرابُ

وأنشد متململاً:

قُلْ للمدامع بعد الحيِّ فذاك أَيْسَرُ ما في

تـنـسـكـبُ حُبِّـهـم يَجِـبُ
أُحِبُّ باناتِ سَّلْع" وفي فؤاديَ من
والمـقـيم بـهـا هجرانهم لَـهَـبُ
غبتم فما سَرَّني من بَعْدِ شيٌ ولا طاب لي من
فُرقـتـكـم بعدكم طَرَبُ
لا تعجبوا من مماتي بعد شوقاً فإنّ حياتي
بـيـنـهـمُ بعدهـم عَـجَـبُ
هم أهل ودَي وإن صدوا وغايتي إن رضوا عنّي
وإن هجروا وانْ غضبوا
دَعْهُم يجوروا فما يُنجيه منهم إليه
للصَّبَ مـن أَحَـدٍ منـهـمُ الـهَـربُ
فهم أحبة قلـبـي لا ما دمتُ حَيّاً وإن بانوا
عـدمـتُـهُـمُ وإن قربـوا
وكان لي سَبَبٌ أرجو فانقضى حين ولّوا ذلك
الصـلات بـه الـسَّـبَـبُ
يا ساكني "رامةً" ما إنْ إلاّ جَرَتْ أدمعي في
ذكـرتـكـمُ الخَدِّ تنسكـبُ

وبعدُ : فابك بكاء مهجور، ونُحْ نواح مأسور، وقل : "تلدّ عيني وقلبي منكَ في أَلمِ ".

فإن لم تَرَ للقبول أثراً فَصِحْ في الوادي :

تلك نجد فأين سُكّـانُ أترى يعرفون بعدي
نـجـدٍ بعهدي
أم نسوني إذ و إبلائي أنا المُعَنّى

فارلموني ملالاً بوجدي

هيَ لي قِبْلَة أنْ أؤدي فيها فريضةَ وردي

فلاتمنعـونـي وأداوي داء الـغـرام تُرْبَها فهـي لـي عـبـيري ونـدي

بـلـثـمـي حَدَّثَ الدمعُ عن جفونـي من روى عنه مُسنداً

فـقـالـوا قلـتُ بخَـدِّي

واجازتـنـيَ الـصـبـابةُ صرتُ أفتي في مذهب العشق وحدي

حـتـى أترى يسـمـح الـزمـان فأراهم من قبـل

بـوصـلٍ اسـكـنُ لـحـدي

يا من عليه صورة التعبد وليس عليه وجدان العبادة. وقد يَتَزَتا بالهوى غيرُ أهلِه مثلُكَ لا يصلح للمحبة، أنت يأسرك حُبُ حَثه، لا يشتم ريحَ نجدٍ إلاّ أعرابي، كيف يصلح في شرع المِحبة نومٌ بعد ترغيب، هل من سائلٍ فأعطيه :

يا مَنْ لحشا المحبَ ذا سِرُّ سُراك في

بالشوق حَـشـا الدجى فكيف فَشا

هذا المولى إلى لا كان عشاءَ أؤرَثَ

المماليك مـشـى القلبَ عـشـا

و ا توبيخ كذب من ادّعى محبتي فإذا جَنَهُ الليلُ نام عني.

فقلتُ لها :بَخِلْتِ عليَّ فَجُودي في المنام

يقظَـى لِمُسْتَـهـامِ

فقالت لي :وَصِرْتَ وَتطمَعُ أن تراني في

تنامُ أيضاً المنام?!

لولا مكابدة السَهَر لم يَقلَّ المجتهد:

سَلُوا الليلَ عنّي مُذ هل اكتحلتْ بالغمضِ

تنـاءتْ دياركُـم لي فيه أجفانُ

إنْ لم يكن لك مركبٌ فاجلس على دكة الاستغفار عساك تُدركُ عسكرَ الليل قبل العتمة فيسهم لك مع القوم.

تعرَّض نسيماً هَبَ من لِيَحيا به ما مات من

أرض "نُعمانِ قلـب هـيمـانِ

وقِف عن يمين الدوح من وقوف ذليل مـدنـفٍ

جانب الحمى نـائمِ عـانـي

ونادِ سلام الـلـه يا بـانة عليك ومن لي بالسلام

الـحـمـى على الـبـانِ

يا من عاملناه مدة ثم قطع، وسار في محجة مجتناي ثم رجع :

رعى اللهُ الديارَ فكم من معهدٍ فيها

"بذاتِ سَلْعٍ" ومغنى

واحسرتا! كيف قُرِّبوا وأبعِدْنا، .و ا أسفاَ كيف دنوا وطُردنا، أين لَذَعات الوجد? أينَ حرقات الفراق ? أين تلهف الزفرات ? أين شدة الحسرات ?.

ألا يا نسيم الريح من تحمّل إلى أهل

أرض بـابـلٍ الحبيب سـلامـي

وإنّي لأهوى أن أكون على أنّني منها

بأرضـهـم استفدتُ غرامي? !

إذا رَمِدَتْ عيني بلفظة حسَّ أو
تداويت منكمُ بسمع كلامِ
وانْ لم أجد ماءَ فَصَلَّيْتُ فرضي
تَيَمَمْتُ باسمكم والديارُ أمامي

استعملت زوجة محمد بن واسع لبَداً تجري عليها دموعه، لأنّ الدموع كانت أكلت ،خدّيه حتى بدت أضراسُهْ إذا رأيتم باكياً فارحموه، واذا شاهدتم واجداً فاعذروه، فإنه قد وجد ما لم تجدوهْ.

مالي سوى قلبي مالي سوى دمعي
وفيكَ أَذَبْتُهُ وفيك بكيتُهُ
ما كنتُ أعرفُ ما والشوق والتبريح
الغرام ولا الأَسى حتى ذُقْتُهُ
لو أنّ عندي والدموعُ رمل القفار من
سواجمٌ الدموع بللتُه

اجتاز رجلٌ صالح بدار صالح المُريّ، فسالَ عليه ماء من ميزاب، فتوقف الرجل يسأل عن الماء، فخرجت إليه الجارية فقال لها: طاهر أم غير طاهر? فبكت وقالت يا سيّدي هذه دموع صالح المُريّ.

هاكُمُ قلبي فإن لم ففؤادي جهدُ ما
يرضكم يمكنني
يا حمامات اللوى يا غرابَ البين ابكِ
نوحي معي شجني

إخواني ! ما أشَدَ الفراق، متى يكون التلاق ? !

غرابَ البين صِحْ كما قد صِحْتَ ويحك
بالقرب صَوْتاً بالبعادِ

تُنادي بـالـتـفـرق فما لكَ بالتقـرُّب لا
كـل يومٍ تُـنـادي

رُوي أنّ طاووساَ ورد على ماء، وكان الماءُ من دموع آدم عليه السلام، فلمّا دخل الطاووس فيه اسودّت رجلاه، فصاح صيحةً عظيمةً وقال : هذه دموع من عصى مولاه، فقال آدم – عليه السلام –: إلهي ومولاي هذه الأطيار تعيّرني في هذه الدارْ شعر في المعنىَ :

لا عُدْتُ أركبُ ما قد جُهدي فَخُذْ بيدي يا
كنتُ أركبُـه خير من رَحِما
هذا مُقام ظـلـومٍ لم يظلم الناسَ لكن
خـائفٍ وَجِـلٍ نفسه ظَلَـمـا
فاصفح بفضلك عمّن بزلَّةِ سبقت منه وقـد
جاء معترفاَ نَـدِمـا
مالي صلاحٌ ولا علمٌ ولا فامنن بعفوك يا من
عَمَـلٌ عفوهُ عمما

قال الجنيد: رأيتُ آدم عليه السلام في النوم وهو يبكي، فقلتُ : علامَ تبكي? أليس قد غفر لك ووعدك بالرجوع إلى الجنة? فناولني ورقة مكتوبة، قال : فأفقت فوجدت في يدي مكتوب :

تحرقني بالنار نـارٍ مـن ونار الهوى نار أحرّ
الـهـوى مـن الـنـارِ
شغفت بجارٍ لا بدارٍ على الجار أبكي لا
سـكـنـتُـهـا على فُرقة الدار
ولو لم يعدني بالرجوع هلكتُ ولكن مقصدي

إلى المـنـى صاحب الدار

قال السريُّ : بتُّ ليلةً بقريةٍ من قرى الشام وإذا بقائل يقول طول الليل: أخطأتُ فلا أعود. فسألتُ أهل القرية عنه، فقالوا: هذا يقال له : فاقدُ إلْفِه. كانت الأمتعة الثمينة والذخائر النفيسة تأتي إلى مصر وتباع ولا ينظر إليها يوسف فإذا جاءت أحمال الصوف من كنعان لا تُحَلُّ إلاّ بين يديه.

"أسائل عنها فهل مخبز".

هيهات لم يكن النظر لذات الصوف وإثما كانت له صفة تدل على الموصوف، ولم يكن إلاّ اشتمام ريح محبوبه، وإتيانها من عند يعقوبه.

لاحَ وعقد اللـيل برق بنار الشوق
مـسـلـوب مـشـبـوبُ
عسى قميصُ الوصل يحيا به المشـتـاقُ
من يوسفٍ يعـقـوبُ

كان أحد المتعبدين يجتهد في العبادة وكُلّما ذكر الله وصلّى يلوم نفسه ويقول : عدمتك يا قلب ما أقساك أصبحتَ وأمسيتَ لعظمة الله ناسياً، إلَهي كيف لي بالقرب منك وقاسي القلب بعيد عنك؟.

ليتَ شعري مَا الذي ليلةً أبرم فيهـا
نلتُ أنا أمـرنـا
هل رضاني سيّدي أو رماني حين اَلفتُ
عبداً له الخنا
ودعاني أمْرُهُ عـن عبدُ سَوءٍ أنْتَ لم
إذنـه تصلح لنا
هكذا ياعبد سـوءٍ بعدما واصلتنا
هـكـذا قاطعتـنـا
قد دعوناك فما عجلت واختبرناك فما

لنـا أعجبتـنـا

أيها الغافلُ ! رُحَلَت القوافل، كيف يكون حال المستهام، إذ ا قُوِّضمت الخيام، وبرزت للرحيل الأعلام، يا معشر المحبين، ويا ذوي الأشواق، ما خُلق الفراق إلاّ لتعذيب العُشّاق، ولا خُلِق الرحيلُ والرواح، إلاّ لتعذيب الأرواح.

سَهَرْتُ غراماً وكيف ينامُ المستهـامُ
والـخَـلِـيُّون نُـوَّمٌ الـمُـتـيّمُ
ونادمني بـعـد غرامٌ ووجد والسقـام
الـفـراق ثـلاثةٌ الـمُـخَـيِّمُ
أأحبابنا إن كان قتلـي فها مهجتي نَصْبٌ لكم
رضـاكـمُ فتحكّـمـوا
"بنعمان " كم لي أسائلُ كثبانَ "
وقفةٌ في ظلالـه الأبيرقِ" عـنـكـمُ
واستخبر الركبان عن وعن أهل نجد أين حَلّوا
ساكني الحمى ويَمَّمُـوا
بكيت الحمى حتى ونـاديتُ وُرْقَ البانِ
بكت لي قلاعُـهُ والقصد أنـتـمُ
أيا ساكني أرضَ تزوروا مريضاً بالغـرام
"العذيب" لعلـكـم مُـتـيَّمُ
ومن عَجَبِ الدنيا وأنتم يُجارُ على ضعفي
أحِـبَـتـي لديكم وأُظْـلَـمُ
ووجدي ذيّاك الذي وحبكم ذاك المصون
تـعـرفـونـه الـمـكـتَـمُ
وكيف يدوم الهجر ولم لا أحبّ السَقْمَ

والقلب عندكـم والسَّقْـمُ أنـتـمُ

سادتي ! ما أعذب أيام التلاق، ما أكثر بكاء المشتاق، ما أحرّ أنفاس العشاق، أين من نجدٍ أرضُ العراق، قُسِمَتِ الغنائم، وأنت يا مسكين نائم، الحربُ غبارٌ قائمٌ، وأنت غلامٌ نائم.

جئتُ مستخفياً و قد فأنا تائب ترى

عرفونـي يقبـلـونـي

لي على الباب مُذْ كُلّما رمتُ وصلهم

وقفتُ زماناً منعونـي

لم اكن للوصال أهلاً انتمُ بالوصال

ولـكـن أطمعتمـونـي

فاجبروا كسر مُذنبٍ يرتجي عفوكم بكم

قد اتاكـم فارحموني

يا ولاة القلوب رفقاً ضاع منه فؤاده

بـعـبـدِ فاعذرونـي

في بحار الهوى طال شوقي لهم وقد

غرقت بوجدي تركوني

أيها النفس ويح قلبي ومهجتي

ساعدينـي وجـدّي هجروني

طُوبى لمنْ وصَل، يا منقطعين فوزٌ لمنْ قُبل، يا مطرودين يا مسكين لو أرادوا قربك لاستخدموك، لو تذللت لهم لرحموك، لكنّك أعرضت عنهم فتركوك، ولم تَأْتِ على المقصود فأبعدوك، وعن بابهم وفضلهم

طردوك، فإن أردتَ قربهم فابك على نفسك وقد قبلوك.

لو بكتْ عيناك يا هذا دَماً ما تقدمتَ إلينا قَـدَمـا

نُحْ علينا أَسَفاً أو لا تنـحْ واقرع السنَ علينا نَدَما

إخواني ! إيّاكم وفرعون الهوى فإنه يصلب القلوب على جذوع النخل، قد قَسَتْ القلوبُ فصارت كالحديد فَقَرِّبوها إلى نار المواعظ، ودعوني أنفخ كير التخويف حتى يحمى، وإلاّ فما ينفع الضربُ في ،حديد بارد?!.

دوبيت :

يا غاية مُنْيتي وأقصى طلبـي ما أسرعَ ما طردتني واعَجَبي

لم أقض على ظماي منكم إرَبي حَتّام أعيشُ بالمنى واحَـرَبـي

يا غافلين عن الحق وقد فتح بَابَه، تعرّضوا للقلوب فهذا وقت أجابَه، خرح كمينٌ من عسكر اللطف فتح باباً من أبواب القرب، هَزَّت شجرات الوصل فتساقطت ثمر الأُنسْ هذا مُنادي الاستدعاء قد كبَّر، هذه بلابلُ الوصال قد صاحت، هذ 5أعلام القبول قد لاحت.

ما زارَ طيفُك إلا قلـتُ ولا انثنى راجعاً ناديتُ واطَـرَبـا واحَـرَبـا

ولا ترنم قمـريٌّ يشكو التلهف إلاّ عـلـى فَـنَـنٍ زادنـي طَـرَبـا

أفدي الغزالَ الذي يوماً على خيفةٍ من بالجزع غازلنـي أعين الرُقَـبـا

يا ليلة السَفْح من عودي كما كنتِ قِدْماَ
وادي الأراك لنـا في قباب "قبا"
واسترجعي طيبَ أيّامٍ فأطيبُ العيش يوماً
لنا سَلَـفَـتْ رَدُّ ما ذَهَـبـا

إخواني ! إياكم والذنوب فإنها أذلّت اباكم بعد عزّ "اسجدوا"، وأخرجَتْهُ من إقطاع) اسكن أنت وزوجك(.

واعَجَباً جبريل بالأمس يسجد له واليوم يجرُّ بناصيته للإخراج ولسانُ حاله يقول ارفق بي :

أرفقوا بي رفقَ من لا تذيبوا بجفـاكـم
ذاق الهوى جَـلَـدي
أخذكم للـروح مـنَـي إنما المحنةُ تركُ
هَـيِّن الـجَـسَـدِ

أعظمُ الظُلمة ما تَقَدَمَها ضوءٌ، وأصعب الهجر ما تقدمه وصل، وأشدّ عذاب ا لمحبّ تذكارُه وقت القرب، في المعنى:

إني لأذكركم فتذهب عنِّي، وأذكرُ فقدَكم
غُـلَّـتـي فـتـعـودُ
واشدّ من مرضي عليَّ وفراقُ من أهوى عليَّ
صدودكم شـديدُ
أقسمت لا عَلِقَ الفؤاد ما دام في الشجر
بغيركـم المورِّق عُودُ

من عرفَ قَدْرَ ما يطلبُ هان عليه ما يبذل، من عرف قدر ما يطلب "بياض "مَنْ قَلِقَ، من ذاق طعم الوصال ثم هُجِرَ تلفَ، ما أمَرَّ طعمَ الفراق.

ولم تَعُدْ أوجُهُ اللذّات مُذْ أدبرت باللِّوى
سافـرةً أيّامنا الأُوَلُ

كان آدم عليه السلام إذا رأى الملائكة ،تنزل من السماء تذكر المرتع في المربع فتأخذ العين في إعانة الحزين. شعر في المعنى:

رأى بارقاً من أرض فبات يسحُ الدمعَ وجداً
نجدٍ فراعَـهُ على نَـجْـدِ
فيا شَجَراتِ القاعِ من سفاكِ هزيمُ الودق
بَطْنِ وَجْـرةٍ مُنبجس الرعـد
هل الأعصر اللاتي كما كُنَّ لي أم لا سبيل
مَضَيْنَ يَعدْنَ لي إلـى الـرَدَ

واعَجَباً لقلق آدم ولا معين له على الحزن، هوام الأرض لا تفهم ما يقولى، والوحش لا تدري وملائكة السماء عندها بقايا من يوم)أتجعل فيها من يفسد فيها(فهو يجول في كربة بلا م معين ولا راحم إلى أن يتداركه مولاه بلطفه.

ألا راحمٌ من آل ليلى غرامي له حتى يكلّ
فأشتكي لساني

تُرى بكى آدمُ لفراق الجنة، هيهات ! ما كان هذاالقلق لنفيس الداربل لربئ الدار، عَجَباً لآدم لمّا غفر الله له طاف بالبيت أسبوعاً فما أتمَّهُ حتى خاضَ في دموعه، كان يبكي للدار مرّة وللجار ألفاً، والفراق يقلقل، والبعاد يزلزل، والشوق يململ، والهوى يقتل.

وإني لمشتاق إلى كما اشتاق نحو الدار
طيب وصلـكـم من طال لفتُهُ
ولم أبكِ بُعد الدار بكيتُ لفقد الصبر
عنِّـي وإنـمـا حتى فـقـدتُـه
إذا كان دمعُ العين فليس بحافٍ في
بالسرَّ بائحـاً الهوى ما كتمتُه

يا معاشر العُصاة !تُعرضون عنا وتُقبل عليكم، وتبارزون ونستركم، وتنفقون نعمتنا في مخالفتنا ونمدّكم،

وتنأون عنا ونستدعيكم، هل من سائل فأعطيَهُ، هل من مستغفرٍ فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه، يا مَرْضَى الذنوب داووها بالاستغفار.

أناسٌ أعرضوا عَنـا بلا جُرمٍ ولا معنى
اساءوا ظنَّهم فـينـا وما سِئْنا بهم ظنّـا
فإنْ عادوا لنا عُدْنـا وإنْ خانوا فما خُنّا
وإنْ كانوا قد استغنوا فإنّا عنهُمُ أغـنـى

يا ابن آدم ! أقبل عليَّ فإنّي عليك مقبل، ومتى رمتَ طلبي فاطلبني بقلبك، بدليل ويسعني قلب عبدي المؤمن، يا آدم أنا وحقّي لك محبّ، فبحقّي عليك كُنْ لي مُحِباً.

ساكنٌ في الـقـلـب لسـتُ أنـسـاه
يعـمـرُهُ فـأذكـــره
نصـب عـينـي دائمـاً و سويدا الـقـلـب
أبـــداً يبـصـره
قلـتُ لـلـعُـذّال إذا بِسُـــلُـــوّ عـــــزَّ
أمـــروا
مالكي في القلب فَسُـلُـوّي أينَ
مـسـكـنُـهُ أُضْـمِـــرُهُ
بيننا عهد من يوم)
أَلسْتُ بربكم(
فلا تنسوا العهد ما فلسنا مدى الدهر
بيننا نـنـسـاكُـمُ

تبعدون عَنّا ونرسل إليكم مسائل هل من سائل، هل من مستغفر، هل من تائب، وتُذنبون فيأتيكم منّا عذرٌ، لو لم تُذنبوا لأتى اللهُ بقومٍ يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم.

تشاغلتُمُ عنّا بصـحـبة غـيرنـا وأظهرتُمُ الهجران ما هكذا كُنـا

وأقسمتموا أن لا تحولوا عن الهوى فقد وجلال الله حلتم وما حلـنـا

يقول الله –عَزّ وجلَ –: وعزتي و جلالي لأمهلن على من عصاني يتلذّذ بنعماي، فإن استحيا مني استحييت منه، وإنْ أعرض عني نظرتُ إليه بالفضل وإن تاب إليّ تبت عليه، وإنْ قال : يا رب! قلتُ : يا عبدي.

إخواني ! ينبغي للإنسان أن لا يقف إلّا بباب مولاه، ولا ينبغي عوضاً سواه، ولا يدعو إلا إيّاه، ولا– يجعل بينه وبينه حجاباً، ويسأله حاجاته القليل والكثير، قال موسى : يا ربّ أسألك القليل والكثير، قال : سلني كل شيءٍ حتى ملْحَ عَجينك وعَلَفَ شاتكْ انظر إلى موسى وأدبه)ربِّ أَرِني أَنْظُر إليك(تارة، وتارة رغيفاً)إنّي لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرُ(.

إخواني ! انظروا إلى يوسف عليه السلام لمّا قال للساقي :)اذكرني عند ربَّك(يعني عند سيّدك وهو الملك انقطع عنه جبريل عليه السلام وكان قبل هذا يزوره، فأوحى الله إليه يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً، وعزّتي لأطيلنّ حبسك فيُقال إنّه لبث في السجن اثنتي عشرة سنة وهي عدد حروف "اذكرني عند ربك" خمسة قبل ذكره وسبعة بعده فلمّا كان منه ما كان من رؤية الأسباب والوسائط والالتجاء بغير جناب الحق، كانت عقوبته انقطاع جبريل عنه فَعَظُم حزنُ يوسف لذلك واغتم واشتدّ غَمُّه :

بِنتُم فأوحشتُمُ الدنيا لِـبَـيْنِـكُـمُ فاليوم لا عوضٌ عنكم ولا بَدَلُ

حملتموني على ضعفي لفرقتكم ما ليس يحمله سَهْل ولا جَبَـلُ

إذا شممتُ نسيماً مـن دياركُـمُ عدمتُ عقلي كأنّي شاربٌ ثَمِلُ

لمّا قدم الرسول من عند يوسف إلى يعقوب ليخبره بخبره، وقف بالباب وأعلم أخته أن تستأذن عليه يعقوب، فدخلت عليه وهو يصلّي فأعلمته فأوجز في الصلاة وقال لها: ما لَكِ يا بُنيّه ! فقالت له : هذا رسولٌ أتى إليك من بعض القرى، فلمّا سمع ذلك قام ووقع، ثم قام ووقع، فأخذت ابنتُه بيده وأخرجته، فقال له : من أنتَ? فقد شممت عليك رائحة طيبة أهاجت مني ما هو مكتتم.

أنهى أحاديث نُعمانِ إنَّ الحديثَ عن
وساكـنِـه الأحباب أسمارُ
أفتِّشُ الريح عنكم من نحو أرضكم نكباءُ
كُلّما نفحـت معطارُ

قال : فأخبره الأعرابي بالخبر، فقال له يعقوب –عليه السلام – أرأَيْتَهُ? قال : لا، ولكنّه ناجاني، فبكى يعقوب، فقال له : يا اخا العرب : هل لك من حاجة? قال : بل هو يحيِّيك بالسلام وأمّا أنا فليس لي في الدنيا من حاجة فإنّ ذلك الغريب أغناني، فدعا له يعقوب عليه السلام وقال هَوَّنَ اللهُ عليك سكرات الموت.

قال أبو الفرج الهمداني : دخلتُ جامع البصرة فرأيتُ شاباً يكتب شيئاً، فقلت أيّ شيء تكتب? فقال لي : أسماء المحبينْ فقلت له : بالله عليك اكتبني فيهمْ قال : لاْ فوقع عليّ من البكاء ما لم أطقهْ فقال لي : يا شيخ ما يُبكيك : فقلت له : ألاّ ما كتبتني في المحبين أو في يحبّ المحبينْ فلمّا جَنّ الليلُ إذا أنا بهاتفِ يهتف بي ويقول لي : يا أبا الفرج قد غفر اللَهُ لكَ ذنوبك بقولك : اكتبني فيمن يحبُ المحبين.

بالـلـه بـألـلـه يا راكب الشملهْ
أُمْنُن عليَّ وقـفةً بجنب تلك الأثلَهْ
فاندب بها تسليمة بين بيوت رمله
وإنْ رأيتاَ هاتفـاً يهتف بي فَقُلْ لَهْ
جُنّ بكم فما الذي به اختلستم عَقْله

قال بعض المشائخ –رضي الله عنه – المحبّة إذا غلبت صاحبها يرى الأشياءَ كُلَها صورة محبوبه، كما قال الجنيد لا تصحّ المحبة من اثنين حتى يقول أحدهما للآخر يا أناْ في المعنى شعر:

أيها السائل عن إن ترانا لم تفرق
قصـتـنـا بينـنـا
أنا من أهوى ومن فإذا أبصرتني
أهوى أنا أبصرتـنـا

حُكي أنه لمّا تمكّن حبُ يوسف من زليخا نسيت كلّ شيء سواهُ، وكانت تسمّي كلَ شيء باسمه، فإذا رفعت رأسها إلى السماء ترى اسمه مكتوباً، فتاهت في حُبِّه حتى أن يوسف لمّا سُجنَ اتخذت قصراَ بإزاء السجن، وكانت لا تنام الليل، فقيل لَها في ذلك فقالت : إن أردتموني فقلبي مسجونٌ عند مسجوني.

قلبي يراك على بُعْـدِ وأنت بالقرب من
مـن الـدار قلبي وتذكـاري
إن غاب شخصُك عن فإنّ حُبّك معقـودٌ
عيني فلم أَرَهُ بـإضـمـاري
وانْ تكلمتُ لم ألفـظ و إن سكنتُ فأنتم
بـغـيركـم عقد أسـراري

إخواني ! هذه الطائفة أبدانهم في عذاب الدنيا، وقلوبهم مع المعذّب، هيهات أجساد القلوب عندكم، وأرواحها عندنا.

إنّ في الأسر لَصَبّـاً دمعُهُ في الخَدِّ صَبُّ

هو بالـروم مـقـيمٌ وله بالشام قـلـبُ

حُكىَ أن إبراهيم بن أدهم – رضي الله عنه – حجَّ إلى مكة فبينما هو في الطواف فإذا بشاب حسن الوجه قد قطع على الناس طوافهم من حسنه وجماله وبهت الناس ينظرون، فصار إبراهيم ينظر إليه ويبكي فقال بعض أصحابه : إنا لله وإنّا إليه راجعون غفلة دخلت على الشيخ بلا شك فقلت له : يا سيدي ما هذا النظرُ الذي يخالطه البكاء؟ فقال الشيخ : اعلم يا أخي أنّي لولا ما، عقدتُ مع الله عقداَ لا أقدر أفسخه كنت أدني لهذا الغلام منّي واسلِّم عليه واضمّه ألتزمهُ، ولكنّي خشيت أن يقطع بي عن من عقدت العقد بيني وبينه، اعلم أنّ هذا ولدي وقرّة عيني تركته صغيراً وفررت إلى الله، هو كما ترى مُذْ كَبر وهؤلاء عبيده وإني لأستحي من الله أن أعود لشيءٍ خرجتُ منه.

وما عرضت لي نظرة ولا شيء إلاّ كان لي

مُذْ عرفته حيث أنظر

اغارُ على طرفي له إذا رام طرفي غيره

فكأنـنـي لستُ أبْصِرُ

فيا منتهى سؤلي ودارك في قلبي إلى

وذخري وعُدَتي يوم أُحْشَرُ

ثم قال امض وسلَّم عليه لعلِّي أتسَلّى بسلامك عليه وأبرِّدُ به ناراً على كبدي قال : فأتيت الفتى وسَلَمْتُ عليه وقلت له : بارك الله لأبيك فيك فقال : يا عم ! وأين أبي؟ إنّ أبي خرج فارّاً إلى الله تعالى، ليتني لو رأيتُه مرة واحدة وتخرج نفسي عند ذلك، هيهات تُرى يجمع الله شملي به، قال : وغَلَبَتْهُ العبرة فردّها بيده وقال : والله لقد أودُّ لو أنّي رأيتُه ودَعْني أموت مكاني.

لقد حكم الزمانُ أراني في هواك كما

علـيّ حـتـى تراني

حبيبي إن بَعُدت فإنّ على مَرِّ الزمان إلـيك

قـلـبـي وأنـي

وإنْ بَعُدَتْ ديارُك عـن ديارِي فشخصك ليس يبرح عن عياني

فيا وَلَعَ العواذل كفّ عنِّـي ويا كفَ الغرام خذي عناني

لقد أمكنتَ حبّك من فـؤادي مكاناً ليس يعرفه جَنـانـي

كأنَّك قد ختمتَ على ضميري فغيرك لا يمرّ على لسانـي

قال : فأتيت إبراهيم بن أدهم وهو ساجد في المقام وقد بلَّ الحصا بدموعه، وهو يتضرّع إلى الله ويقول :

هجرت الخَلْقَ طرّاً في هواكاد وأسلمتُ العبادَ لكـي أراكـا

فلو قطعتني في الحـبّ إربـاً لما سكنَ الفؤاد إلى سـواكـا

فقلتُ له : ادعُ له، فقال جَجَبَهُ الله عن معاصيه.

إخواني ! نفوسُ هذه الطائفة قد ذابت بالمحبة إليه، وقلوبهم طارت بالشوق إليه، قلوبٌ صفت من الأدناس فصفّاها مع الأنفاس، قلوبٌ ، لا يطفى حريقُها، ولا يسكن شهيقُها، إذا لاح للباشق صيدٌ نَسِيَ مألوف الكفَ، من كان واثقاً بالسلامة فرح بفَكَ باب السجن.

دَعْها فَسأئقُ رَكْبِها الأشـواقُ ذُكِرَ الخليط فَمُدَت الأعنـاقُ

شَفَّتْ نسيمَ خُزام نجدٍ فاغتذتْ لايُرتجى لأسيرهـا إطـلاقُ

لا الشامُ شامٌ حين آهاً لذاك، ولا العراق
تُذكرنجدُهـا عراقُ
باحتْ حشاشة نفسها فالوصل منها للضرام
بوصالهم نفـاقُ
لم تستمع ذِكْرَ الحمى فكأنما غَنّى لهـا
إلا انثنت إسـحـاقُ

لمّا تكامَل بناءُ بيت الله تعالى وهي الكعبة الحرام أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن أذّن في الناس بالحج فقال : كيف يا ربّ يسمع صوتي جميع الخلائق? فقال يا إبراهيم منك النداء وعليَ البلاغ، فَعَلا إبراهيم على جبل "أبي قبيس" ونادى من كُلّ الوجوه إن ربكم بنى لكم بيناً فحجّوه، فأجابه من جَرى القدرُ بحجِّه : لبّيكَ اللهم لَبَّيْكَ، وكان ذلك اليوم أخاً ليوم)ألست بربكم(.

لما رأيتُ مناديهـم شَدَدْتُ مئزر إحرامي
أَلـمَّ بـهـم ولَـبَّـيْتُ
وقلتُ يا نفس جدّي وساعديني فهذا مـا
الآن واجتهدي تـمـنـيتُ
لو جئتكم زائراً أسعى لم أقض حقاً وأيُ
على قدمي الحـق أَدَّيْتُ

ثم أَعْلَمَ الجليلُ الخليلَ أن نداءك واقع في محلِّ النُجع، فقال:)يأتوك رجالاً(وهم الرجّالة، وقد حجَّ إبراهيمُ وإسماعيل ماشيين، وحجَ الحسن بن علي رضي الله عنهما خمساً وعشرين حجة ماشياً والنجائب تُقاد معهْ وحجَّ الإمام أحمد بن حنبل ماشيا مرتين)و على كل ضامرٍ(قد ضَمَّرها طول السفر صاروا صابرين على مشاق الطريق بين صعود ونزول ومضيق،)وعلى كل ضامرٍ يأتين من كلِّ فجّ عميق(.

فارق القومُ ديارهم وتركوا مرادهم وجعلوا ذكره زادهم باينوا الخلائق، وتجردوا عن العلائق، تركوا المحيط، وأقبلوا على الملك المحيط، وإنّما أمروا بالتجريد ليدخلوا زيَ الفقراء فَبُيِّنَ آثرُ،)وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى(.

إخواني ! الحجُ حرفان حماء وجيم، فالحاء حلم المعبود، والجيم جرم العبيدْ تالله لقد جمعوا الخير الجمّ ليلة جمع، ونالوا المُنى إذ دخلوا في منى.

نال المنى من حَلَ في وادي مِنى وبكيتُ من ألم الفراق وشقوتـي رفعوا بأيديهم وضخوا بالـبـكـا

غيري فإني ما بلغـتُ مُـرادي فبكى الحجيج بأسـره والـوادي وضَمَمْتُ من حُزني يدي لفؤادي

لمّا حجّ جعفر الصادق –رضي الله عنه – أراد أن يُلَبّي فتغيّر وجهُه، فقيل له : مالك؟ فقال : أريد ان ألبَي وأخاف أن أسمعَ غير الجواب.

وقف مُطْرِفٌ وبكرٌ بعرفَةْ فقال : مطرِفٌ اللهمّ لا تردّهم من أجلي.

وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أنّي فيهم.

وقَفَ الفضيل بن عياض فشغله البكاء عن الدعاء، فلما كادت الشمسُ أنْ تغرُبَ قال : واسوأتاه منك وإن غفرت.

وقف بعض الخائفين على قدم الإطراق والحياء، فقيل له لم لا تدعو؟ فقال ثَمَّ وحشة، قيل: هذا يوم العفو عن المذنبين، فَبَسَط يده فوقع ميتاً مكانه.

انزل الوادي بـايمـنِـه وارم بالطرف العقيقَ فلي وأنشد القلب المشوق عسى وابكِ عنّي ما استطعت إذا وأقرِه عنّي السلام

فهو بالأحـزان مـلآنُ ثمّ إطـراب وأشـجـان يرجع المفقودَ نُـشْـدانُ ما أمال الطرفَ نعمـانُ قلـبـي فـيه سُـكّـانُ

فَسُكّانُ
لا تزدني يا عذولي أنا بـالأسـواق جـذلانُ
جـوىً

قال وُهَيْب بن الوِرْدِ: لقيت امرأةً في الطواف وهي تقول بصوت حزين : إلهي ذهبت اللذات وبقيت التبعات، يا ربّ مالك عقوبةً إلاّ النار، أما في عفوك ما يسعني ?.

وحج الشبليُّ –رضي الله عنه – ماشياً على التجريد فلمّا رأى مكة انشد:

اسُكّان مكة هذا الذي أراه عِياناً وهذا أنا

ثم وقعع مغشيّاً عليه، فلمّا أفاق أنشد:

هذه دارهم وانتَ ما بقاءُ الدموع نجي
مُـحِـبٌ الآماقِ
وقديماً عهدتُ أفنية وفيها مصارعُ
الـدارم العُـشـاق

حجّت امرأةٌ من العبّاد وهي تمشي وتقول : أين بيت ربّي ! أين بيت ربي ! فيقولون : الآن ترينَهُ، فلمّا لاح البيتُ قالوا: هذا بيت ربك، فجعلتْ تَشتدّ وتقول : بيت ربّي، بيت ربّي، حتى وضت جبهتها عليه فما رُفِعتَ إلاّ ميتة.

اشتقتُ يا سفن الفلاة وطربتُ يا حادي
فَبَلِّـغـي الرفاق فَغَنِّني

إخواني ! أين من أضناهُ الشوقُ ? أين من أكمده الحُرق? أين لَذَعك الوجد? أين تأسّف البُعْدُ?

أتظنُ الوُرْقَ في الأيك إنّها تُضمر خزْناً مثل
تـغـنّـي حـزنـي

لا أراك الله نـجـداً أيّها الحادي بنـا إن
بـعـدهـا لـم تُـغَـنِّ
هل تباريني على فرط في ديار الحُبِّ نشوى
الـجـوى ذاتِ غُصْنِ
هَبْ لها السبـق أننا نبكي علـيهـا
ولـكـن زادنـا وتُـغَـنَـي
يا زمان الخيف هل يصح الدهر بها من
مـن دعـوة بعـد ضَـنَ
أرضـينـا بـثـنـيّات عن "زرود" يا لها
الـلـوى صفقة غبـن
سَلْ أراك الجزع هل مُزْنَة تُروى ثراه غير
مرّت بـه جفـنـي
وأحاديث الغضا إنّما تملك قلبـي
لـوعـلـمـت قـبـل أذنـي
يا خـلـيـلـيِّ بـنـجـدٍ وانزلا بالمنحنى إنْ
عَـرَّجـا كان يغـنـي

واندبا الأطلال قد جيرةٌ قد أخلفوا
كـان بـهـا بالبعد ظَـنِّـي
ضاع قلبي وابلائي يا أصيحابي اسمعوا
بـعـدهـم ما كان منّي
طول ليلى ساهرٌ من ونهاريّ في بكاءٍ ثـم

بعـدهـم حـزن؟

ما أدري ما الذي أهاج قلب الحزين، آه من طول تفكر وأنين :

أهاجك من أرض وأنتَ إلى أرض
العراق يروقُ الحجاز مشوقُ
تحنّ إلى لمجلى بروح ومالكَ فيما تبتـغـيه
شـجـيةِ طـريقُ
فلا أهل ليلى يرحمون ومالكَ منهم في
متـيّمـاّ الديار صـديقُ

يا من لم يصل في هذا العام إلى "منى" اطلب مِنَى" فمنَى المُنى إنْ لم تصل إلى عَرَفَه، فأقبل إليه بقلب عَرَفهْ. واعجباً لمن يقطع المفاوز ليرى البيت كيف لا يقطّع نفسه عن هواها ليصل إلى كعبته ويسعني قلب عبدي المؤمن.

إليكَ قصديَ لا للبيت ولا طوافي باركانِ ولا
والحَجَرِ آثرِ

يقال : إن يوم عرفة ينزل ربنا إلى سماء الدنيا فيقول : يا ملائكتي انظروا إلى عبيدي شُعثاً غُبراَ من كلِّ فج عميق، أشهدكم أنّي غفرتُ لهم، وفي لفظٍ لا يبقى يوم عرفة من في قلبه مثقال ذرّةٍ من إيمانٍ إلا غفر له.

حكاية: لمّا اجتمع يوسف –عليه السلام – بأخيه يهوذا قال له : أخبرني عن حال أبي وقصّته :

وما شَرَقي بالماءِ إلا لماءٍ به أهلُ الحبـيب
تـذكُـرا نـزولُ
وما عشتُ من بعد ولكنني للنـائبـات
الأحبة سلوةً حَـمـولُ
أما في النجوم لعيني على ضوء
السائرات وغيرها الصباح دليلُ

فقال : كيف أصف لكَ حاله وقد ذهبَ بَصرُهُ من البكاء عليك فلا يشتهي إلّا لقاءك، فبكى يوسف بكاءً شديداً وقال : ليت أمّي لم تلدنيْ

يا صاحبي إنْ كنتَ لي أو معي فقم إلى أرض الحمى نرتـعِ

واسأل عن الوادي وأربـابـه وانشُد فؤادي في رُبا المجمع

واسمع حديثاً قد رَوَتْهُ الصَّبـا تسنده عـن بـانة الأجـرع

وابكِ فما ني العين من فضلةٍ وَنُبْ فَدَتكَ النفسُ عن مدمعي

يا هذا! إذا رأيت مُحباً ولا تدري لمن، فَضَع يدكَ على نبضه، وَسمَ كُلّ من تظنُّه المحبوب، فإن النبضَ ينزعج عند ذكر الحبيب)إذا ذُكر الله وَجِلَتْ قلوبهم(.

حبيبي دون الكُل أنـتَ حـبـيبُ فهل لي من قُرب إليك نصـيبُ

تعرض لي من أيمن السرَب بارقٌ فَظَلَّتْ عوادي مُقْلَتي تـصـوبُ

أبى الشوق إلاّ أن قلبي بذكركـم يقَلْقِلُه بين الـضـلـوع وجـيبُ

ركبتُ مطايا الوجد نحو دياركـم وخوفي من قطع الطريق قريبُ

وكيفَ أُرَتجَي طيفكم وبين جفوني والرقـاد

أن يزورني حُـروبُ

مريضُ اشتياقٍ ليس فهل غير لقياي

تنفعه الرُّقى الحبيب طـبـيبُ

المحبّة نَبْضٌ في القلب لا تَفْتَر حركته، وسكون النبض علامة الموت.

يا ساكـنـاَ فـؤادي يا نازلاً جـنـانـي

يا من يراهُ قـلـبـي لا مِلْتَ عن عيانـي

يا مهجتي وروحـي يا غـاية الأمـانـي

تُرى تراك عـينـي يوماً من الـزمـانِ

وأن يكون حـظـي في الحمبِّ أن تراني

يا واقفاَ في الصلاة بجسده والقلبُ غائب، أتدري بين يدي من أنت قائم؟ أتدري من اطلع عليك ما يصلح ما بذلتَه من التعبد مهراً للجنة فكيف ثَمَناً للمحبة؟ رأت فأْرة جَمَلاً فأعجبها، فَجَرَتْ بخطامه فتبعها، فلمّا وصل إلى باب بيتها وقف ونادى بلسان الحال : إمّا أن تتّخذي داراً تليقُ بمحبوبك أو محبوباَ يليقُ بداركْ خُذْ من هذا إشارة إما أن تُصَلِّي صلاةً تليقُ بمعبودك أو معبوداً يليقُ بصلاتك. يا مَنْ وافق القوم، ولو بعض يوم، لك في طريقهم ذوق، فأين الشوق؟ كنتَ تدّعي حُبَّنا وتؤثر الشوق منّا، فما هذا الصبرُ الذي عَن عَنّا؟ تعرفُ رياح الأسحار، وما تعرفُ المهبّ ، ولكن دخل فصلُ برد الفتور ولم يحترز فأصابك ركام الغفلة.

يا صاحبيّ أطيلا في وناشداني بِخـلانـي

مؤانـسـتـي وعُـشـاقـي

وحَدِّثا في حديث زوجاً لقلبي وتسهـيلاً

الـخـيف إنّ لـه لأخـلاقـي

ما ضَرَّريح الصبا لونا واستنقذت مهجتي من

سَمَتْ حُرقي أَسْرِ أشواقي

داءٌ تقادم عنـدي مـن وَحيَّةٌ لَدَغت قلبي مـن

يعالجُهُ الراقي
يمضي الزمانُ وآمالي مِمَّنْ أُحِبُ على مَطْلٍ
مصَرَّمةٌ وإملاقِ
واضيعة العمر لا ولاحَصَلْتُ على شيءٍ
الماضي انتفعتُ به من الباقي

يا مَنْ ذهب عمره في البَطالةْ، ورضيَ من الدنيا بأقبح حالَةْ، معمور الظاهر والباطن مهدوم، يا معاسر العُصاة لا تحتقروا ذنباً وإن صَغُر، فإنّ الحشيش يفتل منه الحَبْل فيخنق الفيل المغتلم، أول الحريق شرارة، يا من يُذنب ولا يتوبُ يا من أعمت قلبَهُ الذنوبُ، يَعِدُ بالتوبة ولا وَعْدَ عُرقوب، إلى متى تتعثر في ظلمة البعادْ وعدْ نفسك بتوبةٍ واعزم وقد حَصَّلْتها.

وَعَدْتَ نفسكَ توبةً اعِزم وقد حَصَلْتَها

إلى متى تتعثر في ظلمة الميعاد، قد صاح بوقُ رحيلك، وحُطَتْ أطنابُ الخيم، وما نرى لك مركب، وما نرى لك زاد، جمعت مالكَ – لعيرك والدار يسكنها العدوُّ، ناظرتَ خطَّ ابن مقلة، غلِظْتَ في بُوجاد. فيا مشتاقين أين شوقكم إلى ما فارقتم؟ وأين توقكم إلى ما ألفتم ؟ يا قيس المحبة مُتْ على قبر ليلى :

خذا من صبا نجدٍ أماناً فقد تهاد ريّاها يطيرُ
لقلبهِ بِلُبِّهِ
وإيّاكُما ذاك إذا هَبَّ كان الموت
النسيمُ فإنَهُ أَيْسَر خَطْبهِ
خليليَّ لو أحببتما مَحَلَّ الهوى من مغرم
لعلمتُما القلب صَبَّه

آخر كتاب المنثور لابن الجوزي رحمه الله والحمد لله ربّ العالمين وصلواته على سيدنا محمد واله وصحبه وسلامه آمين .

كتب هذه الرسائل المفتقر إلى عفو ربجه التوّاب السيّد عبد الوهاب بن السيد عبد الرزاق بن السيد محمد بن السيد إبراهيم البغدادي الحنفي وكان الختام في اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب من شهور سنة الألف وثلثمائة وأربع وعشرين حامداً لله ومصلياً على رسوله وعلى آله وصحبه ومُسَلِّما.